نظرة جديدة إلى نَظْم القرآن[1]

١– ولادة طريقة جديدة في التفسير

طُرِحت مسألة وَحدة نَظْم القرآن منذ فجر الإسلام بل منذُ زمن الرسول نفسه كما يشير إلى ذلك النَصّ القرآني (٢٥، ٣٢):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾

وظهرت في القرنين الثالث والرابع مجموعة من الكتب – المفقودة حاليًّا – حول **نَظْم القرآن** ومنها كتاب الجاحظ (ت. ٢٥٥هـ) وقد تبعها مؤلّفات إعجاز القرآن، وأوَّلُها كتاب «بيان إعجاز القرآن» للخطابي (ت. ٣٨٨هـ) الذي وصل إلينا كاملاً وجعل النَظم أحد الركائز الثلاثة لفصاحة القرآن الرفيعة: «واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته»[2].

وقد أشارت كتب الإعجاز مرارًا إلى مفهوم النَظْم أو فنّ ترتيب الكلمات والجمل فناقشته ونقَّحَتهُ في مؤلَّفات الإعجاز ولا سيّما مؤلَّفات الرماني (ت. ٣٨٦هـ) والباقلاني (ت. ٤٠٣هـ) وابن الجبار (ت. ٤١٥هـ) وصولًا إلى «دلائل إعجاز القرآن الكريم» لعبد القاهر الجرجاني (ت. ٤٧١هـ) الذي قدَّم تفسيرًا حديثًا جدًّا لمفهوم النظم يحاكي به أحدث النظريّات اللُغويَّة. وبرفضه لمفهوم الازدواجيّة بين اللفظ والمعنى فقد اعتبر أنّ النَظْم التركيبي للنصّ هو بعينه العامل الأساسي في فصاحة القرآن، حيث لا تجد الكلمات معناها

---

(١) المؤلّف (Michel Cuypers) عضو في معهد الدراسات الشرقيّة للآباء الدومنيكان (IDEO) بالقاهرة.
قدّم هذا البحث ضمن وقائع المؤتمر الدولي الثالث حول «العلوم الإسلامية والعربية وقضايا الإعجاز في القرآن والسنة بين التراث والمعاصرة» المنعقد بكلية دار العلوم بجامعة المنيا بمصر بتاريخ ٣-٢٠٠٧/٦/٤.
قام بالترجمة الدكتور يوسف حبيب نقولا حبيب.

(٢) الخطابي، «بيان إعجاز القرآن في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني» في الدراسات القرآنيّة والنقد الأدبي / تحقيق محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، القاهرة : دار المعارف ١٩٥٥، ص ٢٤.

إلَّا داخل النَظم وَحْدَه وذلك بفضل العلاقات المتبادلة التي يكوِّنها بناء النَصّ. وبناءً على ما تقدَّم فقد وَضع الجرجاني نظريّة مطوَّلة للنَظْم التركيبي للقرآن بل للّغة العربيّة ذاتها. بيْدَ أنّ الأمثلة التي قدّمها الجرجاني اقتصرت على وحدات نصِّيَّة صغيرة: كالجُمل أو الآيات أو الأبيات. إلَّا أنَّه لم يهمل تأثير السياق العامّ على معنى الكلمات، وإن افتقد مفهومه هذا إلى الكثير من الدقَّة. فهو لم يسعَ إلى تحليل البُنية الكاملة للنصّ على غرار ما قام به في حالة الجُملة. ومن ثَمَّ فهو لم يحسم طبيعة العلاقة بين الآيات والسُور القرآنيّة.

وفي كتاب «بيان إعجاز القرآن» يذكر الخطابي نقدًا للقرآن قائلًا: «لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم، فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيّز وقبيل لكان أحسن نظماً وأكثر فائدةً ونفعاً»[٣]. وهو يجيب بدوره على هذا النقد في سياق حديثه بشأن الآية القرآنيّة المذكورة أعلاه قائلاً: «إنّما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعمّ لنفعه»[٤]. فهو لا يسْعى إذن إلى تقديم مَفهوم لوَحدة النَصّ تتخطَّى تَنَوُّع الأجزاء التي تُشكِّل السورة الواحدة. ويبدو أنّ الفضل يعود إلى بدر الدين الزركشي (ت. ٧٣٤هـ) الذي كان أوَّل مَن ضمَّن في العلوم القرآنيّة دراسةَ العلاقات الْمُتَبادَلة بين الآيات وبين السُور. فقد سَعَى في كتابه «البُرهان في علوم القرآن» في فصل «معرفة المناسبات بين الآيات» وفصل «ترتيب وضع السور في المصحف»[٥] إلى فهم ترتيب النَصّ: أي كيف تُكَمِّل كلّ آية ما سبقها أو كيف تتوافق معه؟ والْمِثْل يُقال بالنسبة للسُوَر: ما الذي يربط بين السورة الواحدة وما جاورها من سُوَر؟ إذ يتبيَّن لنا —كما يوضِّحه لنا الزركشي — أنّ بداية كلّ سورة تتوافق تمامًا مع نهاية السورة التي تسبقها.

وبعد مرور قرن من الزركشي، ألَّف برهان الدين البقاعي (ت. ٨٨٥هـ) تفسيرًا للقرآن يتميَّز بعنوان يوضِّح بجلاء الاتِّجاه عينه: «نَظْم الدُرَر في تناسب الآيات والسور». بل ذكَرَ البقاعي الزركشي في مقدِّمة تفسيره واقتبس نصًّا لفَخر الدين الرازي في سياق تفسير سورة البقرة (الآية ٢٨٥) يكْشِف عن انتباه الرازي في تفسيره إلى الروابط التي تربط بين الآيات:

> «ومن تأمّل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أنّ القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه

---

[٣] مكرر، ص ٤٩.

[٤] نفس المرجع.

[٥] الزركشي، «البرهان في علوم القرآن»، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧، ١، ص ٣٥ وتابع و٣٦٠ وتابع.

ونظم آياته ولعل الذين قالوا: إنّه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلّا أنّي رأيت جمهور المفسّرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور، وليس الأمر في هذا الباب كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر».[٦]

وفي كتاب «الإتقان في علوم القرآن»، يكرِّر السيوطي بدوره في الفصل «في مناسبة الآيات والسور»[٧] فحوى ما قاله الزركشي من قَبْل دون أن يضيف أي جديد يذكر. ويتطرّق أيضًا إلى مسألة الارتباط بين السور في كتابه «أسرار ترتيب القرآن» ويذكر فيه عدّة أمثلة للتوافقات بين السور ولكن دون التوصُّل إلى نظريّة حقيقيّة بشأن نَظْم النَصّ. وقد أشار محمّد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسِّرون» (عام ١٩٦١) إلى مُفكِّرين اهتمُّوا بإبراز التوافقات بين الآيات والسور من أمثال خطيب الشربيني (ت. ٩٧٧هـ/١٥٦٩م) مؤلِّف تفسير «السراج الْمُنير»، وأبو السعود (ت. ٩٨٢هـ/١٥٧٤م) مؤلِّف «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، والآلوسي (ت. ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م) مؤلِّف كتاب «روح المعاني»[٨]. ولم تنجح أيٌّ من هذه المحاولات في بلورة نظريّة عامّة حول نَظْم النَصّ القرآني. إذ اقتصرت أعمالهم على ملاحظات محدودة حول الصلة القائمة بين الآيات والسور المتعاقبة: حيث اقتصر العمل على إبراز ارتباط الآية الأولى من السورة بالآية الثانية، ثمّ ارتباط الآية الثانية بالثالثة وهكذا إلى آخر السورة. واتَّبعوا المنهج نفسه في إبراز علاقة السورة الواحدة بالأخرى. ومُجْمَل القَوْل فقد اعتمد منهجهم على محاولة إبراز التسلسلات بين الآيات والسور أكثر منه إبراز البُنية الحقيقيّة للنصّ.

وقد طرح بعض مفسّري القرن العشرين الموضوع نفسه وسَعَوا إلى فهم تنظيم الأجزاء المختلفة للنصّ من خلال علاقاتها المتبادلة. وهكذا حدَّد الشيخ السوري سعيد حوَّى (ت. ١٩٨٩م) المنهج الذي سيسلكه في كتابه «الأساس في التفسير» ومضمونه دراسة تناسق أجزاء السور المختلفة، وحسب قوله في مقدّمة تفسيره هو عملٌ لم يقم به أحدٌ من قبل! وبناءً على ذلك قام بتقسيم السور إلى أجزاء ثمّ إلى أجزاء فرعيّة أطلق عليها «قسم، ومقطع، وفقرة، ومجموعة»، تمثِّل وَحدات دلاليَّة تزداد صِغرًا، سعيًا إلى توضيح العلاقة

---

[٦] فخر الدين الرازي، «التفسير الكبير»، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٣، ٧، ص ١٢٨.

[٧] السيوطي، «الإتقان في علوم القرآن»، دار التراث، القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ٣، ص ٣٢٢-٣٣٨.

[٨] محمد حسين الذهبي، «التفسير والمفسرون»، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٣٧١ هـ/١٩٦١ م، ١، ص ٣٣٨، ٣٤٢، ٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٦١.

الكامنة بين هذه الوَحدات ومن خلالها إلى التأكيد على تناسق السورة برُمَّتها[٩]. و يُعتبر هذا الأمر خطوة حقيقيّة للأمام وإن كان يظلُّ مفتقِدًا الاستناد إلى نظريّة أدبيّة، ممّا جعل تقسيم النَصّ في عدَّة مواضع مثارَ جدل.

غير أنّه في الثمانينات أيضًا، وبينما كان سعيد حوّى يؤلِّف تفسيره، كان أمين أحسن إصلاحي وهو عالم ومفسِّر باكستاني – ولغته الأردو – يقوم بدوره بتحليل القرآن في تفسيره «تَدبُّر القرآن» حيث تَوَصَّل إلى استنتاج مُثير للدهشة: فهو يعتبر أنّ غالبيّة السُوَر – إن لم تكن جميعها – تشكِّل أزواجًا موضوعيَّة[١٠]. والسورتان الأخيرتان (١١٣ و١١٤) و١١٤) تتشابهان بوضوح. كما تُشكِّل جميع السور الثماني السابقة لهاتين السورتين أزواجًا متضادَّة مَوْضُوعيًّا حيث يَتَقابَل مَوْقِف المؤمنين (سورة الإخلاص) وموقف الكُفَّار (من أمثال أبي لهب، سورة المسد). كما أنّنا نعلم أنّ سورة الضحى وسورة الشرح متشابهتان جدًّا إلى حدٍّ دفع بعض المفسِّرين إلى اعتبارهما سورة واحدة. وتشهد الدراسة الْمُفَصَّلة للسور الثلاثين الأخيرة لدقَّة أطروحة أمين إصلاحي. والأمر صحيح بالنسبة للسورتين الطويلتين الأنفال والتوبة أيضًا. كما أنّه يوجد العديد جدًّا من المواضيع المشترَكة التي تجمع بين السورتين النساء والمائدة. ويمثِّل اكتشاف المفسِّر إصلاحي إذن خطوة أولى نحو بلورة نظريّة شاملة حول نَظْم القرآن على أساس مبدأ التناظر.

أمَّا علماء الغرب فلم يشرعوا سوى في الثمانينات من القرن العشرين بالاهتمام بمسألة التنظيم الداخلي للسور وإن ظلَّت نتائجهم جُزئيَّة، ومن هؤلاء أنجليكا نويويرث[١١] وبيير كرابون دي كابرونا[١٢] اللذان تناولا السور المكِّيَّة من هذا الْمُنطلَق، وكذلك ماتياس زاهنيزر[١٣] ونيل روبنسون[١٤] اللذان تناولا بعض السور المدنيَّة. وقد اعتمد هذان العالِمان في تحليلهما على بعض المبادئ الحديثة لتفسير الكتاب المقدَّس.

---

(٩) سعيد حوَّى، «الأساس في التفسير»، دار الإسلام، القاهرة ٢٠٠٣، ١، ص ٣٠-٣١.

(١٠) Mustansir Mir, *Coherence in the Qur'ân. A Study of Islâhî's Concept of Nazm in Taddabur-i Qur'ân*, Indianapolis, American Trust Publications, 1986.

(١١) Neuwirth, Angelika, *Studien zur Komposition der mekkanischen Suren,* Berlin/New York, Walter de Gruyter, Studien zur Sprache, Geschichte und Kultur des islamischen Orients 10, 1981.

(١٢) Crapon de Caprona, Pierre, *Le Coran : aux sources de la parole oraculaire. Structures rythmiques des sourates mecquoises*, Paris, Publications Orientalistes de France, Arabiyya 2, 1981.

(١٣) Zahniser, A. H. Mathias, «Major Transitions and thematic Borders in two long Sûras: *al-Baqara* and *al-Nisâ'*», dans *Literary Structures of Religious Meaning in the Qur'ân*, éd. I. J. Boullata, London/Richmond, Curzon Press, 2000, pp. 26-55.

ذلك أنّه وبالتوازي مع تلك الأبحاث الجارية في أرض الإسلام ودون أدنى اتّصال بها وَجَدَ دارسو الكتاب المقدَّس – من العلماء المسيحيين – أنفسَهم في مواجهة مع مشكلة مشابهة: وهي أنّ بعض نصوص الكتاب المقدَّس تَظْهَر بالفِعْل وكأنَّها تتألَّف من مجموعة من المقاطِع المستقلَّة نوعًا ما عن بعضها البعض. وهذا يَنْطَبِق على الكتب التي يطلق عليها اليهود والمسيحيُّون اسم الكتب النبويَّة والموجودة في الكتاب المقدَّس اليهودي – العهد القديم لدى المسيحيين –، ولكنّه ينطبق على جزء كبير من كتب التوراة – أسْفار موسى الخَمْسة –، كما ينطبق على المزامير بَل وعلى الأناجيل أيضًا. وقد طَرَح هؤلاء العُلماء على أنفسهم مسألة تأليف وتناسق مُخْتلَف الأجزاء في نصوص الكتاب المقدَّس هذه.

أمَّا نُقطة الانطلاق نحو نظَريّة منْهَجِيَّة تَطَلَّبت قرنين ونصف كي تَتَبَلْوَر، فتمثَّلت في الاكتشاف الأوَّل لعالِم الكتاب المقدَّس روبرت لوث[١٥]، الانجليزي المنشأ، الذي نَشَر في عام ١٧٥٣ كتابًا بعنوان «دروس في الشعر المقدَّس لدى العبرانيّين». وقد بيَّن في هذا الكتاب أنَّ مزامير الكتاب المقدَّس تتألَّف بأسرها من مفاصل مُتَوازِية مُرتبطة فيما بينها بصلةِ تَرادُف أو تَضادّ أو تَكامُل. ونجد هنا إذًا مبدأ الثُنائيَّة والتناظر الذي أَعْلَن مؤخَّرًا عن وجودِه في القرآن المفسِّرُ أمين إصلاحي، ولكن على المستوى الأصغر من الآيات:

– ترادُف: الرب بارٌّ في كل طرقه
وصفي في جميع أعماله مز ١٤٥/١٧

– تَضاد: الرب يحفظ جميع محبيع
ويستأصل جميع الأشرار مز ١٤٥/٢٠

– تَكامُل: عيون الجميع ترجوك
لترقهم طعامهم في أوانه مز ١٤٥/١٥

(يُقدِّم الْمِفصل الثاني سَبَب رجاء الجميع: ذلك أنّ اللهَ يمنحُ الطعامَ في حِينِه).

---

(١٤) Robinson, Neal, *Discovering the Qur'an. A Contemporary Approach to a Veiled Text,* London, SCM-Press, 2003, pp. 201-223.

(١٥) Robert Lowth.

وفي الوقت ذاتِه، لاحَظَ عالِمٌ آخر، وهو الألماني بنجال[١٦]، كثرة تردُّد التوازي العكسي أو النظم المعكوس، في الكتاب المقدَّس:

أسبح الرب **طول حياتي**
ما دمت حيا أعزف لإلهي مز ٢/١٤٦

أسكب أمامه **شكواي**
عن ضيقي أمامه أكشف مز ٣/١٤٢

وبعد أن أَشَرْنا إلى التوازي والنظم الْمَعْكُوس يجدر بنا التَنْويه كذلك إلى وجه تأليفي ثالث وهو التأليف الْمِحوري الذي يتمثَّل في إدخال عُنصر مركزي بين مُنْحَدَرَيْ التوازي.

أنقذني **من أعدائي**
يا إلهي
و**من الذين يقومون عليّ** احمني مز ٢/٥٩

وفيما بعد لوحِظ الانتشارُ الواسع لأَوْجُه التأليف هذه في الكتاب المقدَّس، لا على مستوى الآيات فقط، بل على مستوى أَوْسَع بين مجموعة من الآيات أيضًا، وهكذا على عدَّة مُستويات، وحتى الكِتابِ بأكمله. وقد صُنِّفَت الآن مبادئ التأليف هذه في نظريَّة أُطلِق عليها في البداية عنوان «البلاغة الكتابية» ثمَّ مؤخَّرًا عنوان «البلاغة الساميَّة» حينما لوحِظَ أنَّها تنطبق على النصوص الساميَّة القديمة غير الكتابيَّة أيضًا.

وبالفعل، في الثمانينات، واستنادًا إلى تلك المبادئ، قام فريقٌ من الباحثين في بيروت — يتكوَّن من مُسلمَيْن ومَسيحيَّيْن — بتحليل سِلْسِلَة من النصوص الكتابيَّة وبعض الأحاديث الشريفة من البخاري. وفي كتابهم المنشور باللغة العربيَّة[١٧] بِعُنوان «طريقة التحليل البلاغي والتفسير: تحليلات نصوص من الكتاب المقدّس ومن الحديث النبويّ الشَّريف»، قاموا بتوضيح كيفيَّة بناء هذه النصوص جميعها على أُسُس مبادئ التناظر ذاتها التي أوضحناها. وقد اكتشفوا هكذا ثانيةً مبادئ البلاغة الساميَّة التي تختلف كثيرًا عن البلاغة اليونانيَّة التي

---

[١٦] Johann-Albrecht Bengel.

[١٧] رولان مينيه، لويس بوزيه، نائلة فاروقي، أهيف سنّو، «طريقة التحليل البلاغي والتفسير. تحليلات نصوص من الكتاب المقدس ومن الحديث النبوي الشريف»، دار المشرق، بيروت ١٩٩٣.

وَرَثَها الغرب والعالم العربي على السواء. وعلينا أن نفهم هنا كلمة بلاغة بمفهوم فنّ تأليف الخطاب لا بمفهوم فنّ تزيين الخطاب بأوجُه التزيين، كما هو شائعٌ. فكما أنّ كتابة الكلمة أو الجملة توافق قواعد النَحْو، فإنّ مُجْمَل الخِطاب يُوافِق هو أيضًا قواعِد التأليف. هناك إذًا نوعٌ من «نَحْو الخِطاب» أو «بلاغَة التأليف».

واعتمادًا على هذا المنهج قُمنا بتحليل نَظْم ثلاثين سورة قرآنيّة في مجموعة من المقالات نُشِرَت بالفرنسيّة، وفي آذار/مارس ٢٠٠٧ صدر لنا في فرنسا كِتابٌ يُحلِّل سورة المائدة بجُملتها(١٨).

وتسمح طريقة التحليل هذه بإظهار التماسك الشكليّ للنصّ من جهة، ولكنّها توجِّه من جهة أخرى القارئ إلى تفسير مُعَيَّن. ومن هنا تتجلَّى أهمِّيَّتها في التفسير.

وسنقوم بتقديم شرح لهذا المنهج انطلاقًا من نَصّ سورة القارعة الذي رغم قصره الشديد يَفي غرض تقديم مُعظم مبادئ البلاغة الساميّة التي يبدو في نظرنا أنّها قد تنْطبِق جيِّدًا على مُجمَل النَصّ القرآني. ويلي هذا العرض تقديمُ بعض الأمثلة الأخرى على سبيل التلخيص.

ويضطرُّنا النهج التحليلي إلى عرض النَصّ القرآني مؤقَّتًا بطريقة استثنائيَّة لتوضيح الصِلات الحاضرة بين الأجزاء المختلفة للنصّ. ولا شكّ أنّ إعادة كتابة النَصّ هذه ليست سوى مرحلة مؤقَّتة في إطار عمل تحليلي لا يسعى سوى إلى فهمٍ أفضل للنَصّ في صورته المعتادة.

---

(١٨) Cuypers, Michel, *Le Festin. Une lecture de la sourate al-Mâ'ida*, Lethielleux, collection Rhétorique sémitique, Paris, 2007.

وجميع المراجع التي تشير إلى مقالاتنا مُدَوَّنة في القسم الخاصّ بمراجع هذا الكتاب.

٢– التحليل البلاغي لسورة القارعة

الْقَارِعَةُ (١)
مَا الْقَارِعَةُ (٢)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠)
نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

في اللوحة أعلاه، أُعيدَت كتابة النَصّ على هيئة مفاصِل[١٩] متعاقِبَة. وهذا هو المستوى البلاغي الأوَّل: أي مُستوى المفاصِل. ونلاحظ أنّ ترقيم الآيات فيه لا يوافق حتْمًا تقسيم المفاصل، حيث إنَّ المفاصل توافق تراكيب تعبيريَّة أو وحدات دلاليَّة.

أمَّا اللوحة الثانية فهي توضِّح المستوى البلاغيّ الثاني حيث تجتمِع بعض المفاصِل في أزواجٍ مُتَوازِية:

الْقَارِعَةُ (١)

مَا الْقَارِعَةُ (٢)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)

يَوْمَ يَكُونُ **النَّاسُ** *كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ* (٤)
وَ تَكُونُ **الْجِبَالُ** *كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ* (٥)

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* (٧)
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) *فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ* (٩)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠)

نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

[١٩] فيما يلي قائمة المصطلحات المستعملة للدلالة على مختلف مستويات النصّ : مفصل – فرع – قسم – جزء – مقطع – سلسلة – شعبة – كتاب.

نلاحظ أنَّ المفاصِل (١، ١٠، ١١) تبقى مُستقِلَّة، في حين تُكوِّن المفاصل الأخرى أزواجًا مُتَوازِية أو فُروع: لا تحتوي الآيتان ١ و١١ سوى على عنصر أو عنصريْن فقط، دون تكوين جُملة. كما يهدف إيجاز التعبير إلى جذْب انتباه القارئ أو الْمُسْتمِع.

تُكرِّر الآيتان ٢ و٣ تناول السؤال ذاته على نحوٍ ما. والتكرار هنا له تأثير بلاغي واضح.

وقد بُنِيَت الآيتان ٤ و٥ بالطريقة ذاتها وتتكاملان في الْمَعنَى: ففي يوم الدين سوف يتشتَّت الناس لأن الجبال ستتفجَّر. والتشابه بين الآيتين وما يتضمَّنه من تأثير الواحدة على الأخرى يُضاعِف صَدى الفاجِعة التي تعبِّر عنها كلٌّ منهما.

وتتميَّز الآيات ٦–٧ و٨–٩ بوَحدة البنية وتضادّ المعنى تأكيدًا للحَدّ الفاصل بين مصير الأبرار ومصير الكُفَّار.

وعليه فإنّ الآيات في مجموعها تُكوِّن ستَّة أفْرُع. ثلاثة أفْرُع تتكوَّن من مِفصَل وحيد، أمَّا الثلاثة الأخَر فتتكوَّن من مِفصَلَيْن اثنين. وهنا يجدر بنا الإشارة إلى قاعدة راسِخَة في البلاغة الساميَّة ومفادُها أنّ المستوى الأعْلى من الأفْرُع وهو الذي سنُطلِق عليه لفظ «الجُزء» لا يُمكِنُه أن يحتوي على أكثر من ثلاثة أفْرُع. وبالفعل فإنّ اللوحة الثالثة توضِّح لنا أنّ هذه الأفْرُع السِتّة يمكن أن يُعادَ جَمْعُها في مجموعتين اثنتين («قسمين») تتكون كلٌّ منهما من ثلاثة أفْرُع.

الْقَارِعَةُ (١)

مَا **الْقَارِعَةُ** (٢)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا **الْقَارِعَةُ** (٣)

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)
وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ **هَاوِيَةٌ** (٩)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠)

نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

وإذا تناولنا المضمون وَجَدْنا أن القسمين يتألّفان بأسلوب التَوازي: حيث يتمّ وَضْع عُنصر في الأفْرُع الأولىَ (القارعة / الهاوية)، فيتبعهُ سؤالٌ في الأفْرُع الثانية (ما أدراك ما...) لِيَنْتَهي بالإجابة عليه في الأفْرُع الثالثة (اليوم / نار حامية).

أمَّا من جهة الشَكْل فَنَجِد أنّ القسمين قد نُظِّما في توازٍ معكوس (اللوحة الرابعة):

[أ]	الْقَارِعَةُ (١)			
[ب]	مَا		الْقَارِعَةُ (٢)	
	وَمَا أَدْرَاكَ	مَا	الْقَارِعَةُ (٣)	
[ج]	يَوْمَ	يَكُونُ	النَّاسُ	كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)
	وَ	تَكُونُ	الْجِبَالُ	كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)
[ج']	فَأَمَّا	مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ	(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)	
	وَأَمَّا	مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ	(٨) فَأُمُّهُ	هَاوِيَةٌ (٩)
[ب']	وَمَا أَدْرَاكَ	مَا هِيَهْ (١٠)		
[أ']	نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)			

ففي الطرفين [أ] و[أ'] يظهر عُنصر مُستَقِلّ، بدون جُملة، وهو: (القارعة / نار حامية). ويتأكّد تناظُر العُنْصُرَين من خلال ما لديهما من تماثل صوتي: ـَابِـَة

أمَّا الْمَوْضِع [ب / ب'] فتَظهر فيه الأسئلة المتطابقة جُزئيًا.

أمَّا الآيات المتجاورة في وسط السورة (٤-٥ [ج] / [ج'] ٦- ٩) فتكوّن فَرْعين اثنين متوازيين تمامًا. فيمكننا عرض نظم السورة بالشكل الآتي: **أ ب ج / ج' ب' أ'**.

أمَّا على المستوى الدلالي فإن السورة تتحدَّث إذَن في شأن يوم الدين وذلك في قسمين متوازِيَيْن مَعْكوسَيْن، حيث يَصِف الأوَّل منهُما الاضْطراب الكَوْني في ذاكَ اليَوْم، ويَصِف القسم الثاني الدَيْنُونَة وجَزاءَها.

وتَكتَسِب هذه السورة توازنًا كاملاً وحيًّا في الآن ذاته، بالإضافة إلى كلّ ما يميِّز القرآن من إيجاز شديد في التعبير، وذلك بفضل التوازي النظْمي المزدوج الذي يتألّف من توازٍ على مستوى المضمون وتوازٍ معكوس على مستوى الشكل.

٣- بنية سورة يوسف

وتُعَدُّ سورة القارعة مثالًا بيِّنًا على كيفيَّة بناء السور الأخرى بما في ذلك السور الطويلة. إذ يتكرَّر نفس النوع من التوازي في مستويات النَصّ العليا أي في مجموعات من الآيات تزداد طولًا وصُولًا إلى السُورة بأكملها.

وعلى سبيل المثال تتألَّف سورة يوسف من اثنتي عشر سلسلة مُوَزَّعة في توازٍ معكوس كما يوضّحه الجدول التالي:

أ- استهلال (الآيات ١-٣)
ب- رؤيا يوسف (٤-٧)
ج- نِزاع يوسُف واخوتِه: حيلَة الاخوة ضِدَّ يوسف (٨-١٨)
د- ترْقِية يوسف النسبيَّة (١٩-٢٢)
هـ- مُحاوَلَة المرْأة إغْواء يوسف (٢٣-٣٤)
و- يوسف في السجن، مفسِّر لرؤى سجينين، ونبي التوحيد (٣٥-٤٢)
و′- يوسف في السجن، يفسِّر رؤيا الملك (٤٣-٤٩)
هـ′- خاتمة إغواء المرأة: ردّ الاعتبار ليوسف (٥٠-٥٣)
د′- ترقِيَة يوسف النهائيّة (٥٤-٥٧)
ج′- نِزاع يوسُف واخوتِه: حيلَة يوسُف على اخوتِه (٥٨-٩٨)
ب′- إتمام رؤيا يوسف (٩٩-١٠١)
أ′- خاتِمة (١٠٢-١١١)

٤– بنية سورة الفاتحة

وتتألَّف سور أخرى من أشكال أُخر من التوازي إلّا أنّ جميع مستويات النَصّ تتَّسم بوجود أشكال النَظم الثلاثة نفسها: التوازي والتناظر المعكوس والبناء المحوري.

ويتميَّز نَظْم سورة الفاتحة بالتوازُن الكامل إذ يتألَّف من قسمين متناظرين يتكوَّن كلٌّ منهما من فرعين ويتألَّف كلّ فرع من مِفصَلين، ويرتبطَ القسمان بواسطة قسم مركزي صغير مُكَوَّن من فرع واحد.

بِسْمِ **اللَّه**	**الرَّحْمَنِ**	**الرَّحِيمِ** (١)
الْحَمْدُ **لِلَّهِ**	رَبِّ	الْعَالَمِينَ (٢)
	الرَّحْمَنِ	**الرَّحِيمِ** (٣)
	مَالِكِ	يَوْمِ الدِّينِ (٤)

إِيَّاكَ	نَعْبُدُ (أ)
وَ **إِيَّاكَ**	نَسْتَعِينُ (ب) (٥)

اهْدِنَا **الصِّرَاطَ** الْمُسْتَقِيمَ (٦)
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (أ)
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ (ب)
وَلَا الضَّالِّينَ (ج) (٧)

ففي القسم الأوّل لا يقْتَصِر الأمر على وجود توازٍ بين المفصلين ١ و ٢ (مع تكرار اسم الله في كل مفصل) وبين ٣ و٤ أيضًا، بل يوجد توازٍ آخر فيما بيْن المفصلين الأولين من الفرعيْن (أي المفصلان ١ و٣) وهما متطابقان جزئيًّا، وفيما بيْن المفصلين الثانيين (٢ و٤) وبداخلهما لفظان مترادفان هما «رَب» و«مالك»، وهما مضافان في كلّ مرّة إلى مُضاف إليه: («العالمين» و«يوم الدين»).

أمّا الفرعان المتوازيان (٦–٧أ/٧ب–٧ج) في القسم الثالث فيوجد تضادّ بينهما: ففي الفرع الأول نجد أنّ المؤمن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، أمّا في الفرع الثاني فهو يسأله ألَّا يهديه صراط الضالين. ونلاحظ صلة التكامل بين مفصلَي الفرع الأول: حيث يشرح الْمِفصل الثاني معنى عبارة «الصراط المستقيم» التي أُعلِن عنها في الْمِفصل الأوّل.

أمَّا مِفْصَلا الفرع الثاني اللذان يبدأ كلاهما بصيغة النفي («غير» / «ولا») فمن الممكن اعتبار وجود صلة ترادف بينهما: «الضالين» هم «المغضوب عليهم» من الله.

ولا يتضمَّن القسم المركزي (٥أ–ب) سوى فرعًا واحدًا فقط مُتوازيًا ومُترادِفًا: فالْمِفصلان يبدءان بـ«إيَّاك» ويتبعهما فِعلان ينتميان لمجال دلاليّ واحد هو مجال الصلاة: فالتعبُّد والطلب («نستعين») هما العملان الأساسيَّان للصلاة. وكما هي العادة في البلاغة السامية في البنى المحوريَّة يقوم القسم المركزي بدور محور الانطباق بين القسمين الآخرين اللذين يربط بينهما:

- فالمفصل الأوَّل («نعبُد») يشير إلى القسم الأوَّل وهو بالكامل عبارة عن تعبُّد إلى الله من خلال بعض الأسماء الحسنى؛
- أمَّا المِفصل الثاني («إيَّاك نستعين») فيعلِن عن القسم الثاني وهو عبارة عن صلاة طلب فحواها الاستنجاد بالعَوْن الإلهي.

وبناءً على ما تقدَّم يمكننا القول إنّه يوجد تكامل بين القسمين الطَرَفِيَّيْن لسورة الفاتحة وأنّ القسم المركزي الْمُوجَز الذي يشير إلى هذا التكامل يقوم بدور الرَبْط بين القسمين.

٥– اتّساق السُور المركَّبَة (سورة المائدة وسورة المدّثّر)

تتميَّز الأمثلة التي تناولناها حتى الآن بوضوح وَحدة الموضوع أو الوَحدة القصصيَّة (كما هو الحال في سورة يوسف). وإنّ تطبيق قواعد النَظْم ذاتها على السور الأكثر تركيبًا سوف يسمح باكتشاف وَحدة نَصّ حقيقيّة داخلها حتّى وإن كانت أقلَّ وضوحًا.

فسورة **المائدة**، وهي من السور الطويلة التي تتطرَّق إلى عدَّة مواضيع، تتألَّف من شُعبَتيْن (١–٧١/٧٢–١٢٠) تشمل كلٌّ منهما ثلاث شُعَب فرعيَّة نُظِمَت في توازٍ معكوس وِفقًا للشكل التالي:

[أ] (١–٢٦)
[ب] (٢٧–٥٠)
[ج] (٥١–٧١)
[ج'] (٧٢–٨٦)
[ب'] (٨٧–١٠٨)
[أ'] (١٠٩–١٢٠)

وتُعالج الشُعَبتان الفرعيّتان الطرفيَّتان [أ/أ'] موضوع الدخول في عهد الإسلام: دخول المؤمنين الذين قبِلوا العهد ورفض اليهود والمسيحيّين لهذا الدخول [أ]، ودخول المسيحيين الذين قبلوا العهد أو دعوتهم إلى قبوله [أ'].

وتتميَّز الشعبتان الفرعيَّتان الوسَطيَّتان [ب/ب'] كلِّيًا بالطابع التشريعي.

وتُعالِج الشعبتان الفرعيَّتان المتقاربتان [ج/ج'] موضوع علاقة أهل الكتاب مع الجماعة الْمُسلِمة.

ونظرًا لطول سورة المائدة لا يسَعْنا في هذا المقال تقديم المزيد من التفاصيل بشأنها[٢٠]. بيد أنّه من الممكن أن نوضِّح كيفيَّة تطبيق التحليل البلاغي على سورة أقصر نسبيًّا ومُركَّبة في الآن نفسه إلى حدٍّ كبير كسورة **المدَّثِّر**.

وتجدر الإشارة إلى غياب التوافُق حول تقسيم هذه السورة بين المفسِّرين المسلمين وكذلك بين علماء الغرب.

[٢٠] سوف نجد تحليلاً كاملاً لهذه السورة في الكتاب الْمُشار إليه في الحاشية ١٧.

فالمودودي مثلاً يقسِّم السورة في تفسيره إلى سِتّ وحدات[٢١]:

١- الآيات ١-٧ مقدِّمة، تعود إلى الحقبة المكِّيَّة (حيث إنّ بقيَّة السورة مدنيَّة)؛

٢- الآيات ٨-١٠ إنذار إلى الكافرين؛

٣- الآيات ١١-٢٦ قصَّة رجل غنيّ يتَّفق التراث الاسلامي كلّه على أنّه وليد ابن الْمُغيرة الذي رفض الإيمان بدعوة الرسول حفاظًا على مصالحه الشخصيّة؛

٤- الآيات ٢٧-٤٨ وصف للجحيم وللذين سيذهبون إليه؛

٥- الآيات ٤٩-٥٣ جذور عدم الإيمان: غياب الخشية من الحياة الآخرة هو السبب الذي يدفع الناس إلى هجر القرآن؛

٦- الآيات ٥٤-٥٦ خاتمة عقائدية.

أمَّا سعيد حوّى فيقسِّم في «الأساس في التفسير» سورة المدَّثِّر إلى ثلاث فقرات: ١-١٠/١١-٣١/٣٢-٥٦.

ومن علماء الغرب، يُقسِّم ريجيس بلاشير[٢٢] السورة إلى أربع وحدات: ١-٧/ ٨-١٠/١١-٣٧/٣٨-٥٦. فهو يعتبر السورة مكِّيَّة فيما عدا الآية ٣١ التي يعتبرها إضافة مدنيَّة. في حين تُميِّز أنجليكا نويوِيرْث، في دراستها لِبِنْية السور المكِّيَّة، ثلاث شُعَب في هذه السورة:

- الآيات ١-١٠ (وتتفرَّع إلى ١-٧ و٨-١٠)،
- الآيات ١١-٤٨ (وتتفرَّع إلى ١١-١٧ و١٨-٢٦ و٢٧-٣٧ و٣٨-٤٨)،
- الآيات ٤٩-٥٦.

أمَّا في ضوء التحليل البلاغي فنقترح التقسيم التالي:

١- مقدِّمة (١-١٠) تتألَّف من قسمين (١-٧/٨-١٠)

٢- سِلسِلة (١١-٥٦أ) تتألَّف من ثلاثة مقاطِع (١١-٢٦/٢٧-٣٧/٣٨-٥٦أ) نُظِمَت في بناء محوري.

٣- خاتمة عقائديّة وجيزة (٥٦ ب - ج)

---

(٢١) Abu A'la Maududi, *The Meaning of the Qurân, Islamic Publications*, Lahore, XV, p. 136-137.

(٢٢) Régis Blachère.

١– المقدِّمة (١–١٠)[٢٣]

تنقسم بوضوح هذه المجموعة من الآيات إلى قسمين مميَّزين تمامًا: فبعد المدخل في الآية الأولى، تتألَّف الآيات ٢–٧ من مجموعة من الأوامر الموجَّهة للرسول في صيغة الأمر. في حين تؤلِّف الآيات ٨ إلى ١٠ جملة واحدة مركَّبة فعلها مُفرد ماض مبني للمجهول.

يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)

قُمْ **فَأَنْذِرْ** (٢)
وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣)

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)
وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)

فَإِذَا **نُقِرَ** فِي النَّاقُورِ (٨)
فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩)
عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)

وتُحيط بالقسم الأوَّل (١–٧) فكرتان سيتمّ شرحهما في بقيَّة السورة:

١– العظة القرآنيّة إنذارٌ للناس (آية ٢)؛

٢– دعوة إلى الزهد عن الخيرات الأرضيّة ودعوة إلى الثقة بالله (٦–٧)

ويرتبط القسم الثاني (٨–١٠) موضوعيًّا بالقسم الأوَّل من خلال الفعل البَدْئي (نُقِرَ) الذي يذكِّر بفعل أمر الآية الثانية (أنذر): ويعني هذان الفعلان الإعلان والإنذار: حيث يتسلَّم النبي رسالة إنذار الناس (٢) من الخطر الذي يتهدّدهم إذا لم يؤمنوا (٦–٧). فالقسم الثاني إذن يوضِّح معنى القسم الأوَّل: إنّ الأمر الذي دُعِي النبي لإعلانه هو الاقتراب الشديد لسماع بوق اليوم الأخير.

---

[٢٣] لن نقدِّم تحليلًا مُفصّلًا في هذا المقال للمستويات الصُغرى للنصّ (كالمفاصل والفروع). وللاطلاع على التحليل البلاغي الكامل لهذه السورة يُرجى مراجعة: « Structures rhétoriques de la sourate 74, *al-Muddaththir* », *Luqmân* n° 26, Téhéran, 1997, pp. 36-74

٢- السِلسِلة (١١-٥٦أ)

تنقسم هذه السِلسِلة إلى ثلاثة مقاطِع (١١-٢٦/٢٧-٣٧/٣٨-٥٦أ)

المقطع الأول (١١-٢٦)

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)

وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢)وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣)
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤)

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥)

كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦)
سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨)
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩)
ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠)

ثُمَّ نَظَرَ (٢١)
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢)
ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣)

فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤)
إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)

يتألَّف المقطع الأوّل من قسمين: الأوّل عبارة عن وصف لنعم الله على الغني الذي يردُّ النعمة بالبطر (١١-١٧)، ثمَّ الجزء الثاني الذي يصف ريبة الغني من دعوة النبي (١٨-٢٦). وينتهي الجزءان بمفاصل تهديديَّة (١٧ و٢٦) شديدة الشبه في الشكل والمضمون.

وقد نُظِمَ الجزءان في توازٍ:

الجزء الأول	الجزء الثاني
عمل الله الْمُحْسِن (١١-١٤)	موقف الإنسان الذي ينزع إلى الشكّ (١٨، ٢١-٢٣)
ردّ الإنسان الجاحد للمعروف (١٥)	ردّ فعل الله هو ردٌّ عادل (١٩-٢٠)
اتهام الإنسان بعدم تمييز آيات الله (١٦)	تعبير الإنسان عن ريبته من كلام الله (٢٤-٢٥)
التهديد بالعقاب الإلهي (١٧)	التهديد بالعقاب الإلهي (٢٦)

ويمكننا أن نلاحظ صلة الجزء الأوّل – الذي يدِين طمع الرجل الغني – بفكرة الآيتين ٦ و٧ في المقدِّمة: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أمّا الجزء الثاني الذي يصف ريبة الإنسان من دعوة النبي فهو في صِلة تعارض مع الآية الثانية: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾.

المقطع الثاني (٢٧-٣٧)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١)

كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)

يُعدّ هذا المقطع عرضٌ مُستفيضٌ لـ«سقر» (وهي المستوى السادس في الجحيم حسب التراث). كما أنّ هذا اللفظ يربط بين هذا الجزء والجزء السابق الذي ينتهي بالكلمة نفسها.

وينقسم هذا المقطع إلى ثلاثة أجزاء (٢٧-٣٠/٣١/٣٢-٣٧)، ينتهي كلّ جزء منها بعبارة ﴿لِلْبَشَرِ﴾ (٢٩، ٣١، ٣٦). فهذه العبارة تأتي بمثابة مؤشِّر لتقسيم المقطع إلى ثلاثة أجزاء.

ويتجاوب الجزءان الطرفيَّان بشكل كبير: حيث نجد في الجزء الثالث (٣٥-٣٧) تتِمّة الإجابة عن سؤال الآية ٢٧ ﴿وَما أَدْراكَ ما سَقَر﴾ التي بدأت في الجزء الأوَّل (٢٧-٣٠). وتأتي هذه التتمَّةُ بعد القَسَم التأكيدي الثلاثي (٣٢-٣٤). إضافة إلى ذلك فإنّ هذه الآيات تترتّب في تناظر معكوس ممّا يؤكّد على ارتباطها الشديد:

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧)

أ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨)

ب لَوَّاحَةٌ **لِلْبَشَرِ** (٢٩)

ج عَلَيْهَا **تِسْعَةَ عَشَرَ** (٣٠)

ج' إِنَّهَا **لَإِحْدَى** الْكُبَرِ (٣٥)

ب' **لِلْبَشَرِ** (٣٦)

أ' لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)

أمَّا الجزء الثاني وهو الجزء المركزي (آية ٣١) فقد نُظمَ في قسمين (أ-و/ح-ل) يحيطان مفصلًا مركزيًّا (ز).

(أ) **وَمَا** جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ **إِلَّا** مَلَائِكَةً

(ب) **وَمَا** جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ **إِلَّا** فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا

(ج) لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(د) وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا

(هـ) وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ

(و) وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ

(ز) مَاذَا أَرَادَ **اللَّهُ** بِهَذَا مَثَلًا

(ح) كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ

(ط) وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

(ك) **وَمَا** يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ **إِلَّا** هُوَ

(ل) **وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ** (٣١)

وتتشابه أفرع الجزء الطرفيَّة بوضوح: فصيغة «وما... إلَّا» تكررَّت مرّتين في بداية لجزء (أ، ب) ومرّتين في نهايته أيضًا (ك، ل). أمَّا بالنسبة إلى المفردات فنلاحظ وجود ترادف بين ﴿مَلائِكَة﴾ و﴿جُنُود ربِّكَ﴾. وتقودنا هذه التشابهات إذن إلى التقرير بأنّ هذين الفرعين يكوّنان إطارًا واضحًا لهذا الجزء.

من الواضح إذن أنّ الجزء الثاني قد نُظِم في بناء محوري:

[أ]	أمور خاصّة بالملائكة (أ)
[ب]	أمور خاصّة بالمؤمنين وأهل الكتاب، من جهة، والكُفَّار من جهة أخرى. وقد نُظِم هذا الجزء في توازٍ معكوس:
أ	الذين كفروا (مِفْصل ب)
ب	أهل الكتاب... والذين آمنوا (ج ، د)
ب'	أهل الكتاب والمؤمنون (هـ)
أ'	الذي سقمت قلوبهم والكفَّار (و)
	مركز: سؤال المعترضين (ز)
[ب']	أمور خاصّة بالضالّين والمهتدين (ح- ط)
[أ']	أمور خاصّة بجنود الربّ (ك)

في التحليل البلاغي للقرآن (كما هو الحال في الكتاب المقدَّس) يَتَمَحْوَر سؤالٌ في مركز البناء المحوري كما هو الحال هنا. فهذا السؤال يعطي المعنى للآية ٣١ بجملتها والتي تُعتَبَر بكاملها إجابة عن هذا السؤال.

وتوضِّح لنا بِنْيَة هذه الآية الفرق بين المنطق اليوناني والمنطق الساميّ الذي يوجِّه النظْم في القرآن. فبحسب المنطق اليوناني لأصبَحَ ترتيب الخطاب كما يلي:

١- طرح الإشكاليَّة: الآية ٣٠ (لغز الـ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾)

٢- السؤال حول هذه الإشكاليَّة

٣- الإجابة عن السؤال

بَيْدَ أن النَصّ القرآني لا يَطرح السؤال مباشرةً بعد الإشكالية بل أبعد بكثير... إنّه يطرح السؤال في مَرْكَز النَصّ (٣١ز). وبالْمُقابَل فإنَّ الإجابة هي التي تأتي مباشرةً

(٣١ أ، ب)، بل تأتي مرَّتين: مرَّة أولى في بداية الجزء (أ، ب) ومرَّة ثانية في نهايته (ك، ل). فهذا هو بالفعل المنطق الساميّ بطريقته «الدائريَّة» في توجيه الخطاب.

المقطع الثالث (٣٨–٥٦أ)

– كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)
– إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩)

= فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١)
= مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)

+ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)
+ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤)

– وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥)
– وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦)
– حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)

- -

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩)

= كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠)
= فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢)

+ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣)
+ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤)

– فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥)
– وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [أ] ... (٥٦)

يتألَّف هذا المقطع من جزأين، الأوَّل (٣٨–٤٨) يتعلَّق هو أيضًا بـ﴿سَقَر﴾ والثاني (٤٩–٥٦) بالقرآن. ويصل بين الجزأين مِفْصلان متشابهان جدًّا على مستوى الشَّكْل:

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (٤٨)
﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩)
إذ يبدأ المِفصلان بنفس الصيغة الصوتية «فما» التي يتبعُها اسمان مؤنَّثان («شفاعة»، «تذكِرة») واسما فاعل بقافية «ـِين».

ودون مزيد من الإسهاب في تفصيل نَظْم هذا المقطع نكتفي بالتأكيد على التوازي الحاضر بينه وبين المقطع الأوَّل. فقصَّة الرجل الغني الجاحد التي قدَّمها المقطع الأوَّل هي أفضل مثال لِما سيصيب جميع الذين سينحرِفون عن دعوة القرآن.

ونجد في كلٍّ من المقطعين ما يَلي:
- **الجزءان الأوَّلان**، بعد مِفْصل مقدِّمة (٣٨/١١)، يصفان إحسانات الله: هنا في الحياة الدنيا (١٢-١٤) / وفي الحياة الآخرة (٣٩-٤١). يتبع ذلك وصفُ الله لتذمُّر الكافر (١٥-١٦) / ووصف الكفَّار أنفسهم لتَذَمُّرِهِم (٤٣-٤٦). وينتهي القسمان بمِفْصل تهديدي (٤٨/١٧).
- **الجزءان الثانيان** يصفان الفرار من دعوة القرآن: فرار الغني الْمُرتاب (١٨، ٢١-٢٣) / وفرار جميع الْمُتذمِّرين (٤٩-٥٢، مقارنة مع الحمار الذي يهرب من الأسد). وتَصْريحات الْمُرتاب الذي يَعْتَبِر القرآن ﴿سِحرًا يُؤثَر﴾ و﴿قَوْل البَشَر﴾ (٢٤-٢٥) يقابلها طِباقٌ بالتضاد هو التأكيد بأنّ القرآن تذكِرة (٥٤-٥٦أ): ويقترِن في الحالتين التصريحُ بالتهديد بالعقاب الأبدي (وذلك بعد الآية ٢٦ أو قبل الآية ٥٣).

٣- خاتمة السورة

تنتهي السورة بخاتمة عقائدية وجيزة: ﴿هو أهلُ التَّقْوى وأهْلُ المغفِرة﴾ (٥٦ب، ج)
ويشير البقاعي (ت. ٨٨٥هـ) إلى علاقة هذه الفقرة ببداية السورة التي بدأت بإنذار للإنسان الْمُتَذَمِّر، لتنتهي ههنا بخبر الغُفران الذي يمنحه الله للذي يعود إليه في الخشية والطاعة.

وبناءً على ما تقدَّم تتجلَّى البنية الكُلِّيَّة للسورة كما تبينه اللوحة:

[أ] المقدِّمة (١-١٠)

[ب] المقطع الأوَّل (١١-٢٦): (أ) الجزء الأوَّل (١١-١٧)
(ب) الجزء ثاني (١٨-٢٦)

[ج] المقطع الثاني (٢٧-٣٧): (أ) (٢٧-٣٠)
(ب) (٣١أ)
(ج) (٣١ب-و)
مركز (٣١ز)
(ج') (٣١ح- ط)
(ب') (٣١ي ك)
(أ') (٣٢-٣٧)

[ب'] المقطع الثالث (٣٨-٥٦أ): (أ') الجزء الأوَّل (٣٨-٤٨)
(ب') الجزء الثاني (٤٩-٥٦أ)

[أ'] الخاتمة (٥٦ج)

من الواضح أنّ بنْيَة هذه السورة شديدة التركيب إلَّا أنّها تتميّز في الوقت ذاته بشدَّة الاتِّزان من خلال سلسلة من التناظرات. ويجدر بنا أن نلاحظ أنّ نَصّ هذه السورة لا يتطوَّرّ من خلال المنطق الخطِّي الذي يُميِّز البلاغة اليونانيّة. ولأنّ جميع المفَسِّرين – القديم والحديث منهم – قد ورثوا المنطق الخطّي عن البلاغة اليونانيَّة، فقد ظلُّوا يواجهون صعوبات جمَّة في إدراك تسلسل المواضيع المكوِّنة لهذه السورة.

وعلى العكس إذا اتَّبعنا نَهْج البلاغة الساميَّة التي تتأسَّس على الأشكال الثلاث لنَظْم التناظر – وهي التوازي والتوازي المعكوس والبناء المحوريَّ – لتجلَّت لنا حينئذٍ وحدة السورة المعقَّدة في تركيبها والجميلة في بلاغتها وقد تأسَّست على نظْم التناظر، وبانت معانيها التي اغتنت بالتناظر القائم بين الوحدات النصِّيَّة المختلِفة حيث تصبح الواحدة منها صدًى للأخرى.

٦- الخاتمة:

بما أنّ القرآن عربيٌّ لُغةً ونَحْوًا فمن البديهي أن يَقتَبِس في طريقة نَظْم خطابه من التراث العربي، بل ومن التراث الساميّ نفسه. ومن الْمُستَغرَب أن المنظِّرين الذين درسوا النَصّ القرآني من وجهة نظر فنّ البلاغة والفصاحة لم يلجأوا إلى مبادئ البلاغة الساميّة وبَدوا وكأنهم تجاهلوا ما للتناظر من أهميّة كبيرة في نَظْم النَصّ القرآني. وقد يفسّر هذا النهْجَ تبنِّي الثقافة الأدبيّة العربيّة السريع للبلاغة اليونانيّة ونَتَجَ عنه ستْرٌ تامّ لتراث البلاغة الساميّة. وبالفعل يمكننا أن نلاحظ بعض آثار الفكر اليوناني في نهج البحث عن روابط بين الآيات والسور – النهج الذي سلكه الزركشي والسيوطي والبقاعي وآخرون —، وهذا النهج البحثي قائم على أساس وجود منطق خَطِّي مُلازِم للنصّ وهو ما يفرضه المنطق اليوناني والبلاغة اليونانيّة. بَيْدَ أن خلاصة التحليل الذي أجرينا لثلاثين من السور القرآنية تقودُنا إلى تأكيد انتشار منطق التناظر لا المنطق الخطِّي. ومن البديهي أن نتساءل إذًا إن كان منطق التناظر، لا المنطق الخطِّي يُميِّز نَظم القرآن كلّه أيضًا؟ إن البحث مستمر...

وإن صحَّ قول أفلوطين[٢٤] — الذي أكَّد ما قاله آخرون — إنّ «جميع الناس يقرُّون أنّ الجمال المرئي يتألّف من تناظر الأجزاء فيما بينها وفي علاقتها بالشكل الكُلِّي» وأنّ «جمال الكائنات يكمن في تناظرها واعتدالها»، لَساعَدنا هذا القول على إدراك قيمة التناظر في نَظْم القرآن إذ يساهم بقدر كبير في بَثّ شعور خفي بوجود توازن وجمال في النَصّ، حتى وإن بَدا هذا التناظر مستتِرًا في كثير من الأحيان.

واليوم يقِرُّ جميع المهتمِّين بالنظريَّة الأدبيَّة بأهمِّيَّة نظريَّة النَظْم لدى عبد القاهر الجرجاني الذي اعتبَر أنّ جمال وفصاحة النَصّ (وعلى نحوٍ خاصّ النَصّ القرآني) ينبعان لا من الكلمات ولا من المعاني في حدّ ذاتها، بل من تفاعُل العناصر الدلاليَّة المكوِّنة للبنية الأدبيّة والْمُرَتَّبة حسب بناء محدَّد يُسمَّى النَظْم. ونعتقد أنّ التحليل البلاغي كما عرضناه في هذا المقال يُشَكِّل بكل وضوح امتدادًا لهذه النظريَّة.

وإنّ أنواع التوازي والبِناء المِحْوَري العَكْسي (أو التَوازي المعكوس)، والبناء المِحوري التي تؤلِّف بنْية النَصّ في مستوياته المختلفة (كالفروع والأقسام والأجزاء والمقاطع، الخ...) تشكِّل أنماطًا من النَظْم تتجاوب العناصر داخلها وفيما بينها من خلال التناظر. وإنّ إبراز البُنَى السطحيَّة (أي أشكال التناظر في النَصّ) يكشف بدوره عن بُنَى المعنى العميقة التي

---

[٢٤] أفلوطين، «التساعية الأولى» عن الجمال.

تتولَّد من خلال التأثير المتبادَل لعناصر النَصّ من خلال علاقاتها الْمُشْتَرَكَة. فكما يقول الجرجاني فإنّ العنصر الواحد في النَصّ لا يجد معناه إلاَّ داخل سياقه: سياقه الْمباشِر بل وسياقه الأوْسع أيضًا. وفي التحليل البلاغي تُمَثِّل مستويات النَصّ المختلفة أشكالًا متنوِّعة من السياق التي يمكنها بدورها أن تُعدِّل وأن تُغني معنى الكلمات.

ويضيف الجرجاني أنّ الكلمة الواحدة يمكنها أن يكون لها أكثر من مدلول وأنّ السياق الخاصّ بها هو الذي يَنْتَقي الْمَعْنى الذي يناسب أكثر تلك البنْية بعينها[٢٥]. وهذا هو السبب الذي دفعنا إلى الاقتناع بأنّ تحديد النَظْم البلاغي لسورةٍ ما هو مرحلة ضروريَّة نَحو تفسير النَصّ.

بحث وتأليف/ ميشيل كويبرس
معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكان (IDEO)، القاهرة

ترجمة/ يوسف حبيب نقولا حبيب

[٢٥] الجرجاني، «كتاب دلائل إعجاز القرآن»، القاهرة ١٣٦٦ هـ/١٩٤٦ م، ص ٢٩٠-٢٩٤.